الدّرس الرّابع:

علاقة اللّفظ بالمعنى

تمهيد:

ما من شكّ في أنّ اللّغة استرعت نظر المفكّرين القدماء فراحوا يتساءلون عن أسرارها معجبين لتلك المجموعات الصّوتية المنطوق بها، والمعبّرة عمّا يدور في الخَلَد، الموصلة بين أبناء الجنس البشري صلة وثيقة، المميّزة له عن سائر المخلوقات.

***عند القدماء:**

ذهب بعض المفكّرين اليونانيّن القدماء إلى أنّ هناك صلة "طبيعيّة" ذاتيّة بين كثير من الألفاظ ومدلولاتها كالصّلة بين النّار والإحراق، و منهم (سقراط) كما روى عنه تلميذه (أفلاطون) في محاوراته. وقد ظلّ (سقراط) يُمنّي النّفس بتلك اللّغة المثالية التي يسود فيها الرّبط الطّبيعي بين الألفاظ و مدلولاتها كتلك المشتقّة من أصوات الطّبيعة من حفيف وخرير.. إلخ...

وظهر تيّار آخر يتزعّمه (أرسطو) رأى أنّ هذه العلاقة لا تعدو كونها اصطلاحية عرفيّة تواضع عليها النّاس. وظلّت كلمتا (طبيعيّة – عرفيّة) محور الجدل بين الفريقين انطلاقًا من مغامرة فكريّة لا سندٍ علميّ. وقد انتقل هذا النّوع من التّفكير إلى العلماء العرب الأوائل، فانقسموا فريقين: هناك القائلون بالعلاقة الطّبيعيّة الذّاتيّة ومنهم (عبّاد بن سليمان المعتزلي وابن جنّي وابن دريد وابن فارس...) وهناك القائلون بالعلاقة العرفيّة، وأهمّهم (الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني).

***عند المحدثين:**

لقد امتدّ هذا الجدل إلى المفكّرين المحدثين، وإن أخذ صورًا أكثر علميّة والتزامًا بالمناهج ومبادئ الاستقراء؛ ذلك أنّ المحدثين لا ينكرون وجود ألفاظ في سائر اللّغات تربطها بمعانيها "علاقة طبيعيّة"، وتمثّلها عندنا في العربيّة كلمات: الحفيف، الخرير، الصّهيل، العواء، الزّئير...إلخ.. بل هناك ألفاظ تعبّر عن صوت طبيعيّ، فأصبحت مع مرور الوقت معبّرة عن مصدر هذا الصّوت؛ كذلك الطّائر الذي يظهر في الرّبيع في بعض مناطق أوربا ويصيح (كوكو)، فأصبحت لفظة صيحته تدلّ عليه.

وقد عُدّ (دي سوسير) من أشهر المعارضين لهذه الأفكار عندما حكمَ بـ"اعتباطيّة" العلاقة التي لا تخضع كما يرى لمنطق أو نظام مُطّرد.

خـلاصـة:

إنّ الألفاظ في حقيقتها رموز لدلالات، فما يُسمّى (شجرة) يمكن أن يُسمّى بأيّ لفظ آخر متى اصطلح النّاس عليه، إذ ليس في لفظ (شجرة) ما يوحي بفروعها وجذورها و أوراقها وخضرتها. وقد اكتسبت ألفاظ كثيرة في لغات كثيرة شيئًا من القداسة بعد أن حملت أرقى ما أُنتِجَ من آداب وعلوم، واتُّخِذت وسيلة إيصال الوحي الإلهيّ لعقول البشر...أمّا كيف ربط الإنسان الأوّل بين اللّفظ ودلالته، ولماذا اختصّ العربيّ (الشّجرةَ) بهذا اللّفظ و(البحرَ) بلفظ آخر، ومتى بدأ هذا الرّبط... فكلّ ذلك حيّرَ عقول المفكّرين منذ قرون سحيقة، وما زال يحيّرها إلى الآن.

الأستاذ إبراهيم صالحي